النزعة الإنسانية في شعر نازك الملائكة

ا.م.د. معراج أحمد معراج الندوي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عالية- كولكاتا- الهند

الملخص:

يستهدف هذا البحث إبراز النزعة الإنسانية في شعر نازك الملائكة. كانت نازك الملائكة من رواد التطور الشعري لأنها شاعرة الإبداع والتجديد وناقدة في قضايا الشعر العربي. تتحدث في شعرها عن موضع الإنسان في الكون وعن سر وجوده وعن عجزه وعن معرفة الكون الغامض وألغازه وتعبر عن أحاسيسها وعواطفها وخلجاتها النفسية التي تتكون مرآة لآرائها وأفكارها. يتميز شعرها بالحساسية المفرطة وبالألم الحاد كما يمثل شعرالمرأة الشرقية التي كانت تحلم أن تحقق أحلامها في بداية عمرها عن غد موعود ولكنها رأت في الحياة الحقيقية الصرامة والتزمت والقيود. فحصرت نفسها في قوقعة الدموع، ولا شيء غير الدموع. إن شعر نازك الملائكة يعبر من حيث المبنى والمعنى عن الكبت النفسي والتمرد. ولم يكن ذلك غريبا لفتاة عربية شرقية نشأت في بيئة محافظة ثم انطلقت إلى آفاق العالم الرحيب. لقد تجلت النزعة الإنسانية في شعر نازك الملائكة منذ عهد مبكر وامسكت من روح الإنسان الذي يحب لغيره ما يحب لنفسه. فالشاعرة في حبها للوطن ودعوتها إلى الوحدة العربية والثورة على الاستعمار والصهيونية دائما تدعو إلى النزعة الإنسانية. كانت لنازك الملائكة رسالة تدفعها إلى السمو بالإنسانية إلى أرفع مكان تستهلها بحيث لا يكون لها من هدف إلا الحرية والعدل.

الكلمات الافتتاحية:

مدخل:لقد كان للشاعرة نازك الملائكة دور ريادي في تطوير القصيدة العربية في الفكرة والبناء، قدمت فنًّا إبداعياً في الشعر، عبَّرت عن جرأتها في اختراق جدار القصيدة العربية المغلق، ومكَّنت الجيال التي وعت مدرستها الجديدة من التعامل بجرأة مع الأفكار التطويرية للقصيدة الحديثة. ظهرت كمبدعة في مجال الشعر واستطاعت أن تبلغ الرومانسية إلى ذروتها في العراق. ولا شك أن الشاعرة من الأوائل الذين دعوا إلى نظم بالطريقة الجديدة. اشتهرت نازك الملائكة في عالم الشعر لأنها امرأة،

وقد كثر عدد الشعراء من الرجال، ولعلها وطأت بعملها الشعري لنهضة شعرية نسائية. ولا يختلف اثنان في أن نازك الملائكة هي الرائدة الحقيقية لنوع من الشعر الحديث اطلقت عليه "الشعر الحر". برزت هذه الشاعرة ككوب لامع وبلبل غريد في جبين الشعر النسوي العراقي في العصر الحديث.

مولدها ونشأتها: ولدت نازك صادق جعفر الملائكة في ٢٣ من اغسطس عام ١٩٢٣م[١] **في محلة "العاقولية" بغداد** ونشأت وترعرعت في بيت علم وأدب تحت رعاية أمّها الشاعرة "سلمى عبد الرزاق" وأبيها الأديب الباحث "صادق الملائكة" فتربّت في بيئةٍ هيّأت لها أسباب الثقافة والعلم. اختار أبوها صادق جعفر اسم "نازك" لأبنته معناه لطيف ورقيق وطيب الخلق. انتشر هذا الاسم في العشرينات والثلاثينات بالعراق. وكذلك اطلق هذا اللقب على عائلة نازك الملائكة سكّان المحلّة مستوحين هذا اللقب من دماثة أخلاقها وهدوئها وسكونها وانتظام علاقاتها مع الجار والناس وحسن معشرها وغير ذلك من الأوصاف التي تتصف بها الملائكة حيث كان سكّان المحلّة يقدرون بما عليه هذه العائلة من جمع هذه الصفات فيقولون عنهم هؤلاء "ملائكة" وليسوا بشراً.[٢] وأكملت نازك دراستها الابتدائية والثانوية في مدرسة الكرادة للبنات ثم انتقلت إلى دار المعلمين العالية ببغداد. تخرّجت في عام ١٩٤٤م بدرجة امتياز. أحبت الشاعرة الموسيقى من خلال الشعر حيث شعرت أنّ الشعر موسيقى، وإنّ الموسيقى هي جناح الشعر الذي يحلّق به في فضاءات الجمال الحسي ولذا قررت دراسة آلة العود حيث التحقت بمعهد الفنون الجميلة، وتحت إشراف وتدريس الأستاذ الشريف محي الدين حيدر لكنّها لم تستمرّ لأسباب مختلفة. ثم التحقت بمعهد الفنون الجميلة وتخرّجت في قسم الموسيقى عام ١٩٤٩م. وفي نفس العام بدأت دراسة اللغة الفرنسية مع أخيها الصغير أولا ثم واصلت دراستها دون مساعدة أي استاذ لعدة سنوات. دخلت المعهد العراقي عام ١٩٥٣م وقرأت خلال اقامتها هناك موباسان وموليير والفونس دوديه. وفي عام ١٩٥٦م حصلت على شهادة الماجستير في الأدب المقارن من جامعة "وسكونسن" في أمريكا. وبعد عودتها من الولايات المتحدة حضرت مؤتمر الأدباء العرب في بلودان بدمشق عام ١٩٥٨م. وفي هذه الأثناء كانت ثورة تموز في العراق التي تركت أثرا كبيرا في قلبها. بدأت حياتها المهنية كمدرسة في دار المعلمين العالية في بغداد ومنها انتقلت إلى جامعة البصرة ثم جامعة الكويت. قدمت نازك استقالتها من جامعة الكويت عام ١٩٨٢م بعد أن منحت إجازة خاصة وراتبا لمدة سنة كاملة تقديرا لمكانتها الشعرية. وفي عام ١٩٩٢م قررت جامعة

البصرة منحها شهادة الدكتوراه تقديرا واعترافا بانجازاتها الشعرية والأدبية ولعملها في جامعة البصرة. توفيت نازك الملائكة في ٢٠ من يونيو عام ٢٠٠٧م.

آثارها الشعرية:

١. **"عاشقة الليل" عام ١٩٤٦م**
٢. **"شظايا ورماد" عام ١٩٤٩م**
٣. **"قرارة الموجة" عام ١٩٥٧م**
٤. **"شجرة القمر عام ١٩٦٨م**
٥. **" يغير ألوانه البحر" عام ١٩٧٠م**
٦. **" مأساة الحياة وأغنية للانسان" عام ١٩٧٧م**
٧. **" الصلاة والثورة" عام ١٩٧٨**

نازك الملائكة ومسيرتها الشعرية: بدأت الشاعرة نازك الملائكة كتابة "مأساة الحياة" و" أغنية للإنسان"عام ١٩٤٥م فبدأت كتابة الصورة الأولى عام ١٩٤٥م إلى عام ١٩٤٦م والصورة الثانية التي أعطتها عنوانا "أغنية للإنسان" عام ١٩٥٠م والصورة الثالثة عام ١٩٦٥م أي بعد خمسة عشر عاماً. واختارت لهذه المطوّلة "البحر الخفيف" الذي رأته من المرونة بمكان وكأنه يجري بين يدي الشاعر كما يجري نهر عريض في أرضٍ منبسطة. بلغت الصورة الأولى من المطوّلة "مأساة الحياة" ألفاً ومائتي بيت من الشعر، انتهت عند نازك في ستة أشهر عام ١٩٤٦م. كان موضوع هذه المطوّلة فلسفياً يدور حول الحياة والموت وما وراءهما من أسرار ورموز. وقد أفردت جزءاً من هذه القصيدة لبث شكواها من صروف الدهر حيال المآسي التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م ودعوتها إلى الأمن والسلام ونددت في هذا الجزء من المطوّلة بتجّار الحروب وقتلة البشر. وفي نفس الجزء انتقلت إلى الحديث عن السعادة، وعما إذا كان لها وجود في هذه الدنيا قائلةً: "بحثت عن السعادة لدى الأغنياء، لعلّني ألقاها في قصورهم، وحياتهم المترفة الناعمة فلم أجدها، لأنّ الغني لا يستطيع أن يدفع وحشة القبر والأكفان بأمواله".[٣] فقالت نازك الملائكة عن رحلتها إلى عالم الأغنياء بحثاً عن السعادة:

سرْتُ بين القصور وحدي طويلاً أسـأل العابرين أين الطروبُ؟
فإذا فتنة القصور ســـــتارٌ خادع خلقه الأسى والشحوبُ
لم أجد في القصور إلاّ قلوبـــاً حـــائراتٍ وعالماً محزونا
ليس إلاّ قوم يضيقون بالأيـــــ ام ضـيقَ الجياع والبائسينا
ليس ينجيهم الغنى من يد الأشـ جان ليست تنجّيهم الكبرياءُ

ليس يعفو الممات عنهم فهُمْ حُزْ نٌ وصمت وحيرة وكباءُ
كم وراء القصور مُقْلٍ تبْـــــــ كي و تشكو قساوة المقدور
كم قلوبٍ توَّدُ أن تبدِّل القصـــــ رَ بكوخ على ضفافِ الغدير

انبهرت هذه الشاعرة إلى حدٍّ ما بالقصائد الطويلة، ذات المساحة التصويرية الواسعة التي وجدت فيها متسعاً رحباً لإفراغ شحنات النفس من الألم والحزن والتشاؤم.وجدت أنّ حالتها النفسية ونظرتها إلى الحياة، هي الموضوع والمادة الجاهزة لهذه المطوّلة. فكانت مطوّلة "مأساة الحياة" و "أغنية للإنسان" هي باكورة إبداع الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة التي تعتبر افتتاحية حياتها الشعرية المنظمة.

نازك الملائكة وإبداعاتها في الشعر: بدأت الشاعرة نازك الملائكة حياتها الشعرية في بداية الأربعينيات. لم تنظم الشعر ولكنّها كانت تكثر من قراءة الأدب. وكانت أول قصيدة كتبتها هي قصيدة "عاشقة الليل"عام ١٩٤٥م التي اتخذتها عنواناً لمجموعتها الشعرية "عاشقة الليل" ويذكر آخرون أنّ أول قصيدة كتبتها نازك هي "الكوليرا" عام١٩٤٥م.(٤) تطلّعت نازك الملائة إلى الحداثة منذ أن كتبت الشعر نثراً. ثم أدركت أنّ الحياة المرّة هذه تحتاج إلى من يحلل جزيئات حال الإنسان فيها على مدى اليوم، ويبحث عن السعادة ويصل إليها بكل السبل والوسائل. فكانت القصيدة عندها مفتاح الولوج لهذا العالم الشاسع من المأساة الذي تضيق فيه آفاق الشاعر بين شطري القصيدة القديمة وتنفجر روحه الثائرة في حشدي الصدر والعجز قبل الوصول إلى القافية. فانطلقت الشاعرة نازك من سعة الأفكار التي تعجّ في عقلها وضميرها لكي تؤسس لنقلةٍ نوعية في مسيرة الشعر العربي دون الإخلال بقواعد اللغة الشعرية الأصيلة. وحين صدرت مجموعتها الشعرية الثانية "شظايا ورماد"عام ١٩٤٩م انطلقت معها وبها توجّهات نازك الملائكة نحو عالم الحداثة الذي دعت إليه الشاعرة الكبيرة عبر تبنّيها لحركة الشعر الحرّ ودعوة تحرير القصيدة من قيود الوزن والقافية.درست الشاعرة نازك الشعر العربي بمختلف عصوره، ولم تبتعد عنه ولكنّها وبسبب تأثرها بأفكار شوبنهاور التشاؤمية وانغماسها فيها في نظرتها للحياة، أحسّت بثقل قيد القصيدة القديمة في التعبير عن هذه الحياة المأساوية والخروج من ضيقها الذي تتكسر همومها في الصدر وعدم سعتها لرسم الصورة المناسبة للمأساة. فاعتبرت أنّ الشعر العربي لم يقف بعد على قدميه، وأنه لم يتحرر بعد من أسر القواعد التي وضعها الأسلاف في الجاهلية وصدر الإسلام. فالقصيدة حتى نهاية الأربعينيات ظلّت مقيدة بسلاسل الأوزان القديمة وقرقعة الألفاظ الميتة.

القافية عند نازك الملائكة: إنّ القافية من وجهة نظر الشاعرة نازك تضفي على القصيدة لوناً من ألوان الرتابة يملّه المتلقّي لأنّ أذنه تتعوَّد على ضرباته وموسيقاه فلا تحسّ بالجديد وأنها خنقت أحاسيساً كثيرة وأعدمت معاني لا حصر لها في دواخل شعراء التزموا بها. وبضوء هذا التشخيص الذي طرحته الراحلة في كتابها "قضايا الشعر المعاصر". فإنّ الشعراء المعاصرين تمسّكوا بهذا الرأي وخرجوا على القافية واستخدموا نظام الرباعية وأشباهها الذي أصبح اليوم أمراً مقبولاً لا يولّد اعتراضاً على القصيدة الحديثة.ومثال ذلك قصيدتيّ "الكوليرا" و "غرباء" اللتين استخدمت فيهما الشاعرة نظام المقطوعة. نأخذ هذا المقطع من قصيدتها "الكوليرا":

سكن الليل
إصغ إلى وقع صدى الأنّا
في عمق الظلمة،
تحت الصمت على الأمواج
صرخات تعلو تضطرب
حزن يتدفق يلتهب
يتعثر في صدى الآهات

الصورة الشعرية في هذا البيت "كامل التفعيلة"هي صورة معتمة عند نازك الملائكة جنى عليها نطاق الشطرين جناية كبيرة. ما الذي جرى إذن، لقد تم إلصاق كلمة ظلام من أجل إكمال تفعيلات المتقارب، ثم تحوير في النص الثاني وهو "وأدركت ما هي، أي فراغ ثقيل" فأصبح "وأدركتها كالفراغ الثقيل" وبذلك ضيقت الشاعرة على مساحة رؤاها داخل ثماني تفعيلات مما جعل الصورة الشعرية عندها تنكمش. هذا الأسلوب الجديد، هو أرضية الحداثة في الشعر العربي الذي دعت إليه الشاعرة نازك الملائكة وهو ليس خروجاً على بحور الخليل بل هو تعديل اقتضاءً لتطوير المعاني والأساليب.

الحب في شعر نازك الملائكة: الحب من المضامين الرئيسية في شعر نازك كما يسود هذا الموضوع الشعر الإنساني منذ أقدم العصور. الحب عند نازك الملائكة عامل من العوامل التي تحجب الملكات الروحية للإنسان، وتضع حدودا وعوائق. فكانت الشاعرة تعتبر نفسها كأنها تفوق كثيرا هذه بالأمور التي تنعكس في رأيها سلبا على المزايا الروحية السامية للإنسان. وتوجد هذه الفكرة جليا في العديد من قصائدها ولا سيما في قصيدتها "مدينة الحب" إذ تقول:

عد ، لم يزل قلبي نشيدا حالما يشدو بحبك لحنه المفتون
عد ، فالكآبة أغرقت بظلامـــها روحي، فليلي أدمع وشجون
عد، لا تدع نفسي يعذبها الأسى ويعض فيها خافق محزون
عد، فالـــــــحياة- إذا رجعت- أشعة ومشاعر سحرية وفتون

التشاؤم في شعر نازك الملائكة: إن الشاعرة نازك الملائكة كانت تميل في مرحلتها الإبداعية المبكرة إلى الإلحاد حيث نازك قد واجهت في ربيع حياتها ظروفاً صعبة وتعترف الشاعرة بكل صراحة أن هناك إلحاداً في بعض مراحل حياتها افضى إلى الحزن والقلق والحيرة. إن التشاؤم في شعر نازك ليس إلا سمة وميزة للحركة الرومانسية. إن نازك ذات حساسية شديدة ومرهفة الحس. فهي تتأثر بالأحداث العامة البسيطة وتحمل عاطفة حساسة رقيقة. وفي قصيدتها "السفينة التائهة" تقول إن الحياة في نظرها مثل بحر عميق لا يوجد أي ملامح يهيدها ومزقت الرياح شراعها وأقلعتها وأنها يئست من بلوغ شاطئ الحياة ولا تعرف طريق الرجوع لكنها تسير إلى عالم المجهول. وقد عبرت هذه الأفكار والمشاعر بأحسن تعبير. وفي قصيدة عنوانها "الفيضان" بكاء على مصير القرى البائسة التي غمرتها المياه، يرتفع صوت التشاؤم مرددا أن الحزن سنة الحياة. يعارضه صوت الأمل بنضوب الدموع وعودة الصفاء في حين يقف الشاعر مفتونا بمشاهد الخراب ويرى في روعة الطبيعة وطغيان النهر مادة لشعره.(٥) فهي تصور النهر عاشقا يلف يديه حول أكتاف المدينة. فتقول:

ساكبا من شفتيه
قبلا طينة عزت مراعينا الحزينة
ذلك العاشق، أنا قد عرفناه قديما
أنه لا ينتهي من زحفه حول ربانا
وله نحن بنينا، وله شدنا قرانا
أنه زائرنا المألوف، مازال كريما
كل عام ينزل الوادي ويأتي للقانا
ثم تقول:
إنه الآن إله
أو لم تغسل مبانينا عليه قدميها
أنه يعطو ويلقي كنزه بين يديها
أنه يمنحنا الطين وموتا لا نراه
من لنا الآن سواه؟ (٦)

ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة:سيطرت نغمة الحزن على الشعر العربي المعاصر حيث صار الحزن عاملا رئيسيا في معظم ما يكتبه الشعراء المعاصرون. فقد كان الشاعر القديم ينظر وجها واحدا في وقت واحد. فإذا رأى الوجه المطرب طرب وإذا رأى الوجه المحزن حزن. أما الشاعر المعاصر فقد اتسع أفق رؤيته وتلونت الحياة أمامه بألوان مختلفة. فإنه يرى الجانب الناصح للحياة والجانب القاتم في وقت واحد.(٧) وقد وصفت الشاعرة نفسها الحزينة في مقالة لها: "الشعر في حياتي"

فقالت عن حزنها: أما أسباب الحزن الذي يغلف "عاشقة الليل" فهي متعددة. وأحدها ضيقي بفكرة الموت الذي ينتهي إليه البشر كلهم. وكنت لا أطيق ذلك مطلقا وارفضه رفضا كليا. والسبب الثاني لأحزاني ضيقي بالاستعمار البريطاني وكرهي للحكومة العراقية التي يمثلها نوري السعيد وعبد الإله. والسبب الثالث لأحزاني هو موضع المرأة في المجتمع العربي وفقدانها للثقافة والحرية. والسبب الرابع لكآبتي هو عذابي واحتقاري للجنس والزواج اعتقادي بأن الحب يدنس روح الإنسان لما وراءه من حسية وهي فكرة تتجلى في قصيدتي" مدينة الحب" في "عاشقة الليل".(٨)

تقول:

أعبر عما تحس حيـــاتي وأرسم إحساس روحي الغريب
فأبكي إذا صدمتني السنين بخـــــــنجرها الأبدي الرهيب
وأضحك مما قضاه الزمان على الهيكل الآدمي العـــــجيب
وأغضب حين يداس الشعور ويســـــخر من فوران اللهيب(٩)

فكرة الموت في شعر نازك الملائكة: شغلت قضية الموت تفكير الإنسان منذ القدم. حاول الفلاسفة والمفكرون أن يصلوا إلى حقيقته فذهبت الفلسفة الوجودية أن الموت تصالح الروح مع ذاتها. كانت الشاعرة نازك الملائكة دائما تفكر في الموت وفلسفته. إنّ نازك كانت تنظر إلى الموت على أنه كارثة، وهكذا فإنّ الشاعرة الكبيرة التي تلفقها الموت بعد مسيرة طويلة من العمر، قد قالت: "وذلك هو الشعور الذي رافقني من أقصى أقاصي صباي إلى سن متأخرة".

وإذا تأملنا آراءها وشعرها فيبدو لنا أن مشكلة الموت هي إحدى المشكلات التي قادت الشاعرة إلى فكرة العدم في ريعان شبابها وهي التي دفعتها بنظم مطولتها :" مأساة الحياة" التي توضح تشاؤما مطلقا لديها وشعورها الحاد بالظلم والعدم مبعثه الخوف من الموت.

هكذا الموت غالب أبد الده ر ونحن الصرعى عن الضعاف الحيارى
وله النصـــر والفخار علينا فـــــاندبوا ما دعوتمـــوه انتصارا(١٠)

وتغلب على ديوانها فكرة الموت وما يرتبط بها من أحاسيس الخوف والتشاؤم والكآبة. ويبدو أن الشاعرة استوحت موضوع الموت ليس من واقعها الاجتماعي والنفسي وإنما من قراءتها في الشعر الرومانسي ومن قناعتها بوجود علاقة وثيقة بين الشعر والموت. ولقد تجسد الموت أمام عينيها بشكله الواقعي المعروف. فمأساة الإنسان لا بد أن تنتهي بالموت.(١١)

قضية المرأة في شعر نازك الملائكة:كان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو الزمن الذي ذاقت فيه المرأة العربية مرارة الحياة وواجهت مشاكلها الاجتماعية مواجهة صعبة. فقد كانت محجبة لا يؤذن لها بالخروج من البيت إلا في ساعات النهار. بدأت الدعوة إلى تعليم المرأة في مصر والشام منذ أواخر القرن الماضي بل أسست بعض المدارس للبنات. وكانت المرأة العراقية أكثر تخلفا من المرأة المصرية. وفي هذه الفترة من التاريخ. ظهر عدد كبير من المثقفين الذين تأثروا بالحضارة الغربية وثقافتها. فدعا البعض إلى إنصاف المرأة العربية ودعم حقوقها المسلوبة في التعليم والعمل والمشاركة الاجتماعية. بدأت النهضة النسائية الحديثة في العالم العربي خطواتها الأولى في أواخرعهد إسماعيل حيث فتح باب التعليم أمام المرأة المصرية فارتقت المرأة العربية في صعودها إلى طريق التقدم الحضاري والتحرر الفكري. ولا غرو في أن العلم هو النور الهادي يؤدي الإنسان إلى السعادة والحرية والكمال. فالعلم هو طريق الوعي والاستنارة واليقظة لحقوق المرأة العربية والتعليم في حياة الإنسان فهو حجر أساسي لحياته المدنية والثقافية.تمتاز الشاعرة نازك الملائكة بفضل التقدم والمبادرة بين الشاعرات المعاصرات للقرن العشرين فيما يتعلق بالتساوي بين الجنسين والدعوة إلى تحرير المرأة العراقية والدفاع عن قضية المرأة وإعطاء حقوقها الكاملة في كل مجال من مجالات الحياة. و في قصيدتها " الناشئة في الشارع" رسمت الشاعرة للفتاة صورة رهيبة تبعث في كل نفس ما تبعث من أسى وحزن. وهي تقول:

إحدى عشرة كانت حزنا لا يـنطفئ والطفلة جـــــوع أزلي، تعب، ظمأ
ولمن تشكو؟ لا أحد ينصت أو يعني البشـــــــرية لفظ لا يسكنه معنى
والناس قناع مصطنع اللــون كذوب خلف وداعته اختبأ الحقد المشوب
والمجتمع البشري صريع رؤى وكؤوس والرحمة تبقى لفظا يقرأ في القاموس
ونيام في الشارع يبقون بلا مـأوى لا حمى تشفع عند الناس ولا شكوى
هذا الظلم المتوحش باسم المدنية، باسم الإحساس ،فوا خجل الإنسانية(١٢)

وفي هذه القصيدة عبرت نازك الملائكة عن حالة المرأة الاجتماعية بأسلوب يمتاز بالجمالية الفنية وقوة التعبير ووضوح الصورة الشعرية مما يدل على أن للشاعرة قدرة على التعبير الشعري وعلى التوافق والالتحام بين الألفاظ والمعاني.

النزعة الوطنية في شعر نازك الملائكة:شهدت بداية العشرين الاضطهاد الاستعماري والغزو البريطاني على صعيد الوطن العربي بالجملة ولم يكن العراق والشعب العراقي من المستثنيات. وكان من الطبيعي أن تتأثر الشاعرة نازك الملائكة

بالأحداث الهامة الوطنية وفي مقدمتها قضية فلسطين ومشاكل الشعب الفلسطيني الذي كان يعاني من التشرد والحرمان. وفي هذه الفترة من الزمن تصاعدت في العالم العربي حركة التحرير الوطني ضد الاستعمار البريطاني هادفة إلى تحقيق الحرية وتخليص الأمة العربية من براثن الاستعمار بكل أنواعها وأشكالها. وكان العراق أيضا يمر بحركة شعبية بتمرد والثورة على الوقع السياسي حيث شنت طبقة من المثقفين حملتها الواسعة ضد النزاع الاستعماري. أثارت هذه الأحداث والحركات عاطفة الشاعرة من قلبها. لقد كان حب الوطن عند نازك الملائكة فطريا وإن كان نصيبه من شعرها في بداية الأمر قليلا. يتواصل التدفق العاطفي لدى نازك ويتطور مفهوم الحب. فيتمازج حب البشر بحب الوطن ليتربع حب الوطن على عرش قلبها وشعرها. أخذت نازك الملائكة تنظم القصائد الوطنية الحماسية وتشير إلى هذه الفترة قائلة: "وكنت أتفجر حماسة لتلك الثورة ونظمت حولها القصائد المتحمسة التي لم أنشر منها أي شيء ، فسرعان ما انتصر الحكم البوليسي في العراق ودخل عبد الإله على دبابات الجيش البريطاني ونصبت المشانق للأحرار، ولم يعد في العراق من يستطيع التنفس، ولكننا أنا وأمي استمررنا ننظم القصائد الثائرة سرا، نطويها في دفاترنا الحزينة. "(١٣)

تقول نازك الملائكة القومية هي الحياة. بذلك تسبغ أن نعيش من دونها، ولأن المجتمعات لا تقوم على شيء غيرها. ونحن في ذلك شبيهون بالأشجار التي تبحث عن مصلحتها فتأخذ من الدفء والضوء والألوان ما يعينها على النمو والحياة، وكذلك تبحث الإنسانية فينا عنمصلحتها وضمان سعادتها فتجدها في الشعور القومي."(١٤)

ومن القصائد الوطنية قصيدتها "اللصوص" وهي تعني باللصوص أولئك المستعمرين الذين يحتلون بعض البلدان العربية والذين ينهبون ثروات الأرض العربية. وقد ثبت أولئك اللصوص أقدامهم في أكثر الدول العربية ويسرقون مواردها الطبيعية. وفي هذه القصيدة تنبه الشاعرة الأمة العربية إلى ضرورة الحذر من أولئك اللصوص الذين ينتهزون هذه الفرص وينتحلون شتى الأسباب لدخول الوطن العربي تحت أي ستار. وليس هدفهم إلا امتصاص دماء العرب وسرقه مواردهم الطبيعية. وهي تقول:

انه الليل، كل الحـــــدود غرقت في مدى غيهبه
بدياجيـــــه لف الوجود أيها العربي انتـــــبه
رحبـــات المدى النائيات بـــــــــخطى الأعداء
من وراء ضعاف الفرات والخلـــيج إلى صنعاء
ولصـــــوص هناك كثار كلهم جشـــــع وخداع
اقبلوا من وراء البـــحار يسرقون طعام الجياع(١٥)

وفي إطار حسها القومي تعبر نازك الملائكة اهتماما بالغا بقضايا العرب وهي قضية فلسطين. فالشاعرة تعتقد أن العرب لا تعني شيئا بدون الاستقلال التام ولا يمكن تحقيق هذا الهدف النبيل إلا بالإدارة العربية والصمود القومي ضد الاستعمار. والجدير بالذكر أن صوت الشاعرة في شعرها الوطني كان بعيدا خلاف عادتها عن الرمز والابهام.

النزعة الرمزية في شعر نازك الملائكة:ظهرت الرمزية كمذهب واع في النصف الأخير من القرن التاسع عشر فإنها كانت قائمة في متن الفنون منذ عهدها الأقدم وبخاصة في الصلوات والمزامير. افترضت الرومانسية على الواقع وحملته ثقلها ونسبت إليها ما لا حقيقة له. وأما الرمزية فإنها احترمت الواقع الخارجي وأبقت له حقيقة الحسية الخارجية القاصرة وتأملت في باطنه واطلعت منه على حقائق هي الأعمق وليست حقائق وهمية مرتجلة. إن الاتجاه الرمزي شعر يتصل بخصائص النفس الإنسانية ويصعب للعقل الواعي إدراك حقائقه التفصيلية. وهو شعر امتاز بالموسيقى والجمال.فالرمزية بأشكالها المختلفة أعنت الأدب الرومانسي عموما إذ يميل الرومانسيون إلى استخدام الإشارة في اللغة وتجسيد الصور المستوحاة من عالم الأحلام. تحولت نازك الملائكة من شاعرة رومانسية إلى شاعرة رمزية وانتقلت من التعبير المباشر عن التجربة إلى التعبير الرمزي، والتعبير الرمزي لا ينضج من الناحية الفنية إلا في "قرارة الموجة". والواقع أن الرمزية عند نازك الملائكة مرتبطة بالرومانسية. فالرموز تتيح لها تحقيق الذات والتعبير بشكل غير المباشر عن تبرمها بمعطيات الحياة التي تعيشها. استلهمت الشاعرة كثيرا من الرموز والحكايات الأسطورية في شعرها. ولم تكن نازك شاعرة رمزية بالمعنى الذي دعا إليه رواد المذهب الرمزي وإنما هي شاعرة رومانسية استخدمت الرمز للتعبير عن مكوناتها الداخلية. فالرمزية التي امتاز بها شعر نازك ليست من ذلك النوع المغرق في الإبهام أو في التعمية والالغاز.(١٦) وهي تقول:

على قمة من جبال الشمال كساها
وغلفها افق مخملي وجود معنبر
وترسو الفراشات عند ذراها لتفضي المساء
وعند ينابيعها تستحم نجوم السماء
هنالك كان يعيش غلام بعيد الخيال
إذا جاع يأكل ضوء النجوم ولون الجبال
ويشرب عطر الصنوبر والياسمين الخضل
ويملأ أفكاره من شذى الزنبق المنفعل
وكان غلاما غريب الرؤى غامض الذكريات

وكان يطارد عطر الربى وصدى الأغنيات
وكانت خلاصة أحلامه أن يصيد القمر
ويودعه قفصا من ندى وشذى زهر

هذه القصيدة رمزية في بنائها ومشحونة بالأجواء والصور الرومانسية لأنها تتحدث عن طفل يسرق القمر ليزرعه في بيته، والقمر والطفولة رمزان شاخصان من رموز الشعر الرومانسي.

النزعة الرومانسية في شعر نازك الملائكة: إن النزعة الرومانسية بدأت تلتمس طريقها في العصر الحديث عن طريق شعراء "الديوان" المعروفين بنزعتهم الوجدانية وثورتهم ضد عمود الشعر. ازدهرت الرومانسية عند شعراء المهجر و شعراء أبولو. وكان في طليعة هؤلاء الشعراء على محمود طه و إبراهيم ناجي وصالح جودت وجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي والياس أبو شبكة وفدوى طوقان وغيرهم.ومن خصائص الشعر الرومانسي هي الهروب من قسوة الحياة وصخب المدينة إلى أحضان الطبيعة. تأثرت نازك بالمدرسة الرومانسية. ولا شك في أن الرومانسية نازك طبيعية بصفتها امرأة شرقية عربية عراقية، مثقفة مفرطة الحساسية. وبالإضافة إلى ذلك قرأت نازك شعر إيليا أبوماضي و ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ونسيب عريضة ورشيد أيوب فأعجبت بهم إعجابا كثيرا وتأثرت بشعرهم. فالشاعرة نازك الملائكة حاولت لثم الطبيعة بلمسات شعرية كما تقول: أحب الطبيعة ، أحب النخيل، أحب الجبال. وقد ظهر حبها للطبيعة في كثير من قصائدها ولكن هذا الحب لم يتجسد في وصف الطبيعة بجدائل نخيلها أو شموخ جبالها وإنما باللجوء إلى الطبيعة.(١٧) إن نازك الملائكة هي شاعرة رومانسية. تعبر عن وحدتها وعن قلقها النفسي العميق في ليل هذه الوحدة المظلمة البهيمة تعبيرا رائعا للغاية. وهي تقول: إن طريقها في الحياة مملوءة بالمجهول الذي لا تعرف سره وتعبر عن ثورتها علة وحدتها في هذا الجو المملوء بأعمق المشاعر بالغربة والوحشة. وهي تقول:

ارجع فالليل تثير مخاوفه قلقي وأنا وحدي والنجم بعيدا في الأفق
يخدعني أمل في فجر لم ينبثق وصبـــــابة دمع باردة لم تحترق

وتقول:

دربي حاولت صدى أن ارفع أستاره تصخب في عتمته أشباح ثرثارة
أنكرت الدرب كأن لم اعرف أحجاره يوما بالأمس ولم استكشف أسراره(١٨)

وفي العديد من قصائدها كانت الشاعرة تبحث عن المجهول وتفر من الواقع.وهذا لا يعني أن شعرها كان ملجأها إلى الرومانسية بل هو التفكير إلى العالم الداخلي للنفس الإنسانية بكل ما يحمل من أحزان وأفراح. ومن خلال هذه النزعة الرومانسية تمكنت

الشاعرة أن تصوغ أحلامها الدفينة. شاعت النزعة الرومانسية في شعرها استجابة لحركات التجديد في الشعر العربي الحديث. وهي تقول:

النزعة الإنسانية في شعر نازك الملائكة: إن مصطلح النزعة الإنسانية قد وضعه "الإنسانيون" في عصر النهضة الأوربية في القرن الرابع عشر. ومنذ ذلك الوقت ما زال هذا المصطلح ينطوي على معان عديدة ومدلولات مختلفة. ولا يخلو أدبنا العربي الحديث من هذه النزعة الإنسانية. ففي قصائد حافظ إبراهيم التي شن فيها الحملة على الاستعمار البريطاني وتغنى بمصر، وغنى حقوقها نزعة إنسانية مشتقة من العاطفة الإنسانية الأصيلة، عاطفة القومية وحب الاستقلال القومي وكذلك قصائد خليل مطران لا تخلو من نزعة إنسانية. ونجد لمسات قوية وحارة في شعر أحمد شوقي وسواء من بقية شعرائنا المعاصرين. إن قصص المنفلوطي تصور تصويرا رائعا لأحزان الطبقات البائسة للمجتمع وهذا أيضا لون من النزعة الإنسانية. وعندما سئلت الشاعرة نازك الملائكة عن النزعة الإنسانية فأجابت بطرح سؤال وهو: ما هو المقصود بالنزعة الإنسانية قبل كل شيء؟ أو ليس الأدب كله محصولا إنسانيا يعالج أحاسيس الإنسان وأفكاره وانفعالاته وأحداث حياته؟ وهل كان محض صدفة أن الأوربيين يطلقون لفظ " الإنسانيات" على الأدب إجمالا تمييزا لها عن الدراسات العلمية؟ هذه الأسئلة يتغافل السؤال عنها حين يتضمن معناه العام أن الإنسانية نزعة صغيرة تقوى وتضعف ونستطيع نحن التدخل في تقويتها وإضعافها. إن الأدب ينبع مباشرة من حياتنا الإنسانية. فإذا أردنا علاجا وضعف النزعة الإنسانية لا بد أن يكون نتيجة لضعف مقابل في إنسانية الناس.[١٩] إن الأدب الإنساني يولد من صميم الحياة وظروفها ومشاكلها والمفهوم بالنزعة الإنسانية في الأدب هو أن يتناول الأديب والشاعر موضوعات لها صلة بمشاكل الحياة وآلامها وأحزانها بما يؤكد على ضرورة إزالة مظاهر المعاناة البشرية ويناشد المجتمع لإقامة العدل الاجتماعي والحق بما يضمن الخير للمجتمع. عالجت نازك الملائكة موضوعات اجتماعية في قصائد عديدة. والجدير بالذكر أن الشاعرة معجبة بالأدب المهجري حيث تتجلى فيه النزعة الإنسانية بكل وضوح وصراحة. قد تأثرت الشاعرة أيضا بالشعر الوجداني خاصة بقائد توماس غري و وردزورث وشيلي وبايرون. فقصيدتها "مرثية في مقبرة ريفية" تعد مفتاحا لفهم الحزن الدائم والألم المتدفق والمشاعر الثائرة والعطف على الإنسانية.[٢٠] وكذلك نجد في قصيدتها "مرثية غريق" لوحة إنسانة رسمتها ريشة نازك الملائكة بألوان تفجرت من نفسها الحساسية وموهبتها الرفيعة. فكان المساء يقترب ويخيم والضياء يخبو والقطيع يعود ولم يبق سوى موج النهر يدوي ويروي أسرار الحياة في هذا الجو

الذي يبعث في النفس الطمأنينة والهدوء وترثي فيها غريقا رأته وطفا تائها تحت دجى الليل الحزين". تطلب الشاعرة من رياح الليل أن تهدأ ولا تقلق جسمه. وتزهر إنسانية الشاعرة، وتتسع شكواها مما يحيق بالإنسان من مآس و آلام وتنتهي إليه صورة قاتمة تعبر عن مصير الإنسان فكل شيء مصيره إلى الزوال والفناء ولا أمل للإنسان في هذا الوجود.فالنزعة الإنسانية النزعة السائدة في شعرها. وهي تقول:

آه يا شـــــاعرتي، هذا غريق فاحزني للجسد البالي الممزق
راقدا، تحت الدياجي، لا يفيق والسنا من حوله جفن مؤرق
يا رياح اللـــيل رفقا بالرفات واهدأي،لا تقلقي جسم الغريق
حســبه ما مزقت أيدي الحياة فليكن منك له قلب صديق(٢١)

ملخص البحث:إن دراسة شعر نازك الملائكة تدفعنا إلى التفكير بأن الشاعرة تبحث عن عوالم بعيدة مع أنها تعيش بين أهلها وفي بلدها. فكانت تعيش في عالم خاص بها ينهض على اليأس والألم وحده والغربة والعيش مع ذكريات الماضي. نلاحظ في ديوانها الأول "عاشقة الليل" التمرد الحزين بإطار من الرومانسية المحضة. وهي محافظة بذلك على الأشكال القديمة معتمدة على الشعر الحر. انتقلت من التعبير المباشر إلى التعبير الرمزي يوحي الحالة النفسية إيحاء رمزيا. يتصف شعرها بالحساسية الزائدة وبالألم الحاد. ففي شعرها نجد الحزن والألم فكأنها في مأتم دائم ولم يتطور الحزن عندها إلى أشكال فنية مبدعة، كان تخلع إحساسها بالألم على الآخرين فتصور بؤسهم ومشكلات حياتهم ومآسيهم الكثيرة. ترك الحزن أثرا بعيدا في قلبها. فإن بواعث الكآبة التي تتجلى في شعرها ليست في الحرمان ولا في الحب الضائع ولا في فكرة الموت وإنما الحزن الذي نشأ في الحياة والموت من جهة والتأمل في الأحوال الإنسانية من جهة ثانية ثم انتقلت هذه التأملات إلى صعيد الحس فتركت في قلبها جروحا لا تندمل. فتحت الشاعرة عيونها إلى الآفاق الوسيعة الإنسانية. وكانت شديدة الحساسية إزاء تموجات العالم الفكرية بصورة عامة. وهذا التألم والحزن كان الباعث على تشاؤم الشاعرة إذ أن المها ليس ألما ذاتيا أو شخصيا بل كان الما للإنسانية. نازك الملائكة شاعرة تحس بآلام الإنسان وتشعر بما حولها من ظلم وجور. وهي تشهد مآسي الحروب وانطلاقة الأقطار العربية وثورتها على الظلم والاستعمار. آلت الشاعرة على نفسها أن تبكي على شجن العالم، وليس أمامها غير البكاء. وهي الشاعرة الحساسة والرقيقة التي لا تملك من وسائل تغيير أوضاع الإنسانية إلا الشعر. اتصلت نازك في شعرها بالحياة وعالجت قضايا الإنسانية ودافعت عن الطبقات

المحرومة في المجتمع. لقد تجلت النزعة الإنسانية في شعر نازك الملائكة منذ عهد مبكر. تظهر هذه النزعة الإنسانية في ديوانها الأول، ولو أن دواوينها الأخيرة تتسم بالنزعة القومية والوطنية ولكنها تنطلق من روح الإنسان الذي يحب لغيره وما يحب لنفسه. فالشاعرة في حبها للوطن ودعوتها إلى الوحدة العربية والثورة على الاستعمار والصهيونية دائما تدعو إلى النزعة الإنسانية لأن القومية الحقة والوطنية الصادقة تستهدف الحياة الحرة الكريمة. وكانت الحرب أول مظهر من مظاهر نزعتها الإنسانية. وكانت لنازك رسالة تدفعها إلى السمو بالإنسانية إلى أرفع مكان بحيث لا يكون لها هدف سوى الحرية والعدل كما تؤمن نازك الملائكة بالتقدم والإنسانية والحب والسلام.

الهوامش:

١- فرحانة صديقي: نازك الملائكة وآثارها الأدبية والشعرية، ص، ٤٢
٢- نفس المصدر، ص، ٢١
٣- عبد الرضا علي: نازك الملائكة – دراسات ومختارات ص، ٢٨ دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٥٧م
٤- نازك الملائكة: الشعر في حياتي: مجلة العربية للثقافة، مارس ١٩٨٣م ص ١٨٩
٥- قصيدة: خائفة من ديوان: " قرارة الموجة" ص، ٣٩٨
٦- نفس المصدر ص، ٣٥٧
٧- د. شرارة: صفحات من حياة نازك الملائكة، ص: ١٢٣
٨- ديوان عاشقة الليل، ج، ١ ص، ٤٩
٩- قصيدة أنشودة السلام ، ديوان مأساة الحياةج ١ ص، ٥٤
١٠- ديوان مأساة الحياةج ١ ص، ٤٥
١١-روز غريب: نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر، ص: ١٤٠
١٢-قصيدة" نائمة في الشارع" ديوان قرارة الموجة، ص
١٣-فرحانة صديقي: نازك الملائكة وآثارها الأدبية والشعرية ص١٨٤
١٤-نقد الفكر القومي:الياس مرقص دار الطليعة، بيروت عن نازك الملائكة الموجة القلقة لماجد أحمد السامرائي، ص ٧١
١٥-قصيدة: نغمات مرتعشة: عاشقة الليل: ص ٥٣٠
١٦-سلمان إبراهيم: تأثير المذهب الرومانسي في شعر نازك الملائكة، مجلة الأقلام ص ٦٥: ١٩٨١ العدد، ٣٤
١٧-أحمد مطلوب: الإنسانية في شعر نازك ، مجلة الأقلام ص ٣٧، ع، ٥،
١٨-قصيدة: خائفة من ديوان: " قرارة الموجة" ص، ٣٩٨
١٩-أحمد مطلوب: الإنسانية في شعر نازك ، مجلة الأقلام ص ٣٧، ع، ٥، ١٩٦٠
٢٠-سلمان حسن إبراهيم: تأثير المذهب الرومانسي في شعر نازك الملائكة مجلة الأقلام ص ٣٧
٢١ ـ قصيدة مرثية غريق: عاشقة الليل، ص ٥٠٧ ج، ١ سنة ١٩٤٥